

المحاضرة 6

الإعجاز البياني

المحتويات :

1- مفهوم الإعجاز البياني:

2- تمثيلات الإعجاز البياني:

أ/ الأساليب

ب/ التكرار

ج/ الإلتفات

د/ السياق

هـ/ التشبيه



بالنظر إلى ما أشرنا إليه سابقاً من تأصيل مصطلح "الإعجاز اللغوي" بديلاً للمصطلحين "الإعجاز البلاغي" ، "الإعجاز البياني" حينما قاربنا مستويات الخطاب القرآني الصوتية والصرفية والتركيبية، فإن ما سنتناوله في هذه المحاضرة سيتمحور حول البيان بوصفه جزءاً من بلاغة القرآن (يعني المستوى البلاغي المكمل للمستويات سالفه الذكر)، وضمنه موضوعات معروفة في الدرس البلاغي العربي، لأنه لا تكتمل مقارنة الخطاب القرآني دون الولوج إلى الجوانب البيانية التي تتعلق بأسلوب القرآن وجماليته.

1- مفهوم الإعجاز البياني:

إن من أعظم وجوه الإعجاز هو الإعجاز البياني لذلك فإننا نجد أن العلماء قديماً وحديثاً يركزون في حديثهم على هذا الوجه، حيث تكمن أهميته في عدة أمور:

- إن الإعجاز البياني تجده في كل كلمة من كلمات القرآن، وفي كل آية من آياته، وفي كل سورة من سوره، وأما الوجوه الأخرى فليست كذلك ، فمثلاً الإعجاز العلمي يوجد في عدد من الآيات، فليست كل آية بل ليست كل سورة محتوية على قضية علمية ، وكذلك الأمر في الإعجاز الغيبي والتشريعي .

- إن التحدي الأكبر لمشركي قريش كان أولاً وقبل كل شيء بالإعجاز البياني ، وذلك لبراعتهم الشديدة في فنون اللغة وبلاغتهم في بيانها ، فجاء التحدي في المجال نفسه الذي برعوا فيه ، أما بقية أنواع الإعجاز الأخرى كالإعجاز العلمي مثلاً لم تكن العرب تدرك كثيراً من معانيه ؛ وذلك لقلّة معرفتهم في مجال العلوم الطبيعية ، وإنما تكشف فيما بعد.

- إن الإعجاز البياني له الدور الأكبر في حفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل بعد حفظ الله تعالى له حيث لا يسمح بترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية بل تترجم معانيه فقط ولن الترجمة لا تسمى قرأناً وليست بمعجزة ومن هنا يبقى كتاب الله تعالى محتفظاً بإعجازه البياني كما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- إن الإعجاز البياني يوقفنا على ثراء هذه اللغة وعلى أسرارها وروعة بيانها كاتساعها للعديد من المترادفات، والمتقابلات ، والصور الخيالية والجمالية ، وعلم البديع.

2- تمثلات الإعجاز البياني:

ثمة نوعان من العدول : العدول عن ظاهر اللفظ والتركيب أي في المبني ، والعدول عن ظاهر المعنى و يسمى: العدول الدلالي؛ الأول ركزنا عليه في الجانبين الصوتي والصرفي، أما الثاني فكان

البلاغيون والنقاد أكثر عناية به، ولاسيما في علم البيان في مباحث الحقيقة والمجاز والكناية والاستعارة والصور البيانية . لكن كلاهما يفضي إلى معنى ثانٍ يصطبغ بمنحى بلاغي.

و في هذا الشأن ذهب "الرماني" (ت 386هـ) في كتابه "النكت في إعجاز القرآن" إلى أن وجوه الإعجاز اللغوي (البلاغي) عشرة هي (الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، و التلاؤم، والفواصل، والتجانس، و التصريف، والتضمين، و المبالغة، والبيان).¹

أ/الأساليب.

إن مباحث الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير وغيرهما من مباحث علم المعاني ، فقد عوّها عدولت عن أصل مثالي مفترض ومنها نفذوا إلى ملامح جمالية وأسلوبية . و ما هي الا عدولت عن واقع لغوي مثالي مقترح لكثرتها في اللغة والعدول خروج عن المستوى المألوف وهي تراكيب لغوية مألوفة إلا أنها تحوي ملامح أسلوبية ودلالات ثانية يعني بها البلاغي .² وهذا يرجح إدراج تلك المباحث في جانب الإعجاز التركيبي، كما أسلفنا .

ومن جهة ثانية؛ فعلم المعاني -وهو الذي اتخذ النحو منطلقاً لمباحثه في تشخيص العدول في معنى كثيراً بالعدول الدلالي ؛ فالاستفهام والأمر والنهي والنداء وغيرها ، أصول تخرج إلى معانٍ مجازية تستفاد من السياق والقرائن، فالاستفهام مثلاً يخرج إلى أغراض مجازية منها : الاستبطاء والتعجب والنفي والتقرير والإنكار والتهكم والتحقير والتعظيم وغيرها .

إن «العدول في النص القرآني، ليس خروجاً أو خرقاً لنظام العربية كما يرى أكثر النحاة والبلاغيين ولاسيما المعاصرون إنما هو خروج على القياس النحوي لا الواقع الاستعمالي للنص القرآني ، هو نظام العربية نفسه في أعلى درجاته الإبداعية البلاغية لتؤدي اللغة معاني لا تؤدي إلا في ضوء أنظمة العربية المختلفة : الصرفي والنحوي والبلاغي وغيرها . وهو أحد وجوه إعجاز القرآن وسرّ التحدي للبشر عامة الذين لم يبنوا لغاتهم على نظام مطرد معجز»³.

ومن جهة المعنى المستفاد من الآيات؛ قد لا نستطيع حصر الأساليب البيانية في القرآن الكريم فهي تختلف فكل منها يناسب أهدافاً معينة وأحوالاً خاصة للمخاطب من الأساليب ما نجده صريحاً يتناول الطلب مباشرة ومنها ما يدل على المطلوب دلالة غير مباشرة.

ومنه أسلوب الإطناب وعرض الفكرة مبسطة و موضحة من كل جوانبها وهذا الأسلوب يناسب أصنافاً من الناس وأغراضاً معينة. وأيضاً أسلوب الإيجاز والاختصار فهو يتناسب مع أصناف من الناس كالأذكىاء.

ونجد أسلوب الترغيب ليقرر الأمر المرغوب فيه كي تقبل النفس عليه ، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصًا﴾ [الصف:4]، وأيضا أسلوب الأفناع الفكري ، وأسلوب الجدل والحوار . أو أسلوب الترهيب وهو في الغالب يلائم معظم النفوس الإنسانية لما أودع الله فيها من حذر وخوف ويبين المرهب منه كي تنفر النفس منه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ﴾ [النحل:92]، ونجد التحذير الشديد من نقض العهد ويبين ماله من نتائج ضارة وأثار سلبية ومن هذا الباب التكاليف الشرعية فنجد فيها أوامر ونواهٍ مثل (أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وافعلوا الخير ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تسرقوا ولا تقربوا الزنا) فمعظمها تقترن بنظرية الترغيب.

ب/ التكرار.

لقد تعددت آراء القدماء حول قضية التكرار في القرآن الكريم، من بينهم:

التكرار عند ابن قتيبة:

تحدث الإمام "ابن قتيبة" (ت 276هـ) عن قضية التكرار وخصه بعنوان في كتابه " تأويل مشكل القرآن " وترجمته باب تكرار الكلام و الزيادة فيه .⁴

وقد أورد الإمام عندما تحث عن التكرار بأسلوبه هو و اعتبره عرفا لغويا عربيا قائلا: تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزئ عن بعض كتكراره في: ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ ﴾ . [الكافرون:1].

و في سورة الرحمن بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ ، قد علمت أن القرآن بلسان القوم من مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد و الإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف و الإيجاز، لأن افتتان المتكلم و الخطيب في الفنون وخروجه عن شيء أحسن من اقتصاره في المقام عن فن واحد ، وقد يقول القائل للرجل: اعجل، اعجل و للرامي: ارم ، ارم ... كل هذا يراد به التأكيد للمعنى الذي كرر به اللفظ .⁵

ولذلك نجد أن التكرار ورد في القرآن كثيراً . ومع أن الأسلوب في الكلام العادي قد لا يسلم معه من القلق والاضطراب، إلا أنه جاء في كلام الله مُحْكَمًا. ولكون هذه الظاهرة بارزة في القرآن، فقد تعرض لها المفسرون والبلاغيون، وبيّنوا جزءاً من أبعادها ودلالاتها على اختلاف مواقعها، كما حاولوا التعرف على محاورها وأنماطها التي تمثلت في تكرار حروف وكلمات، وتكرار بدايات وفواصل، و تكرار جمل وآيات، و تكرار قصص وأنباء...⁶

إلا أنهم اختلفوا في دلالة توظيفها، فانقسموا إلى فريقين؛ ففي حين رأى فريق في التكرار ظاهرة ملحّة، يركز عليها القرآن الكريم في بنيته، لا سيما أن من وظائفه البلاغة والتأكيد على المعنى المقصود من الألفاظ المكررة⁷، نفي الفريق الآخر التكرار من القرآن تماماً، بادعاء عدم الفائدة من التكرار اللفظ نفسه في السياق نفسه للمعنى نفسه . فحتى لو كانت الألفاظ مكررة، فإنها تدلّ بنظرهم على معانٍ مختلفة.⁸

أنواع التكرار في القرآن

قسم العلماء التكرار الوارد في القرآن إلى نوعين:⁹

أحدهما : تكرار اللفظ والمعنى

وهو ما تكرر فيه اللفظ دون اختلاف في المعنى، وقد جاء على وجهين : موصول، ومفصول:

أما الموصول:

فقد جاء على وجوه متعددة: إما تكرار كلمات في سياق الآية، مثل قوله تعالى: ﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [المؤمنون: 36] ولما في آخر الآية وأول التي بعدها، مثل قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِغَابِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: 15-16] ولما في أواخرها، مثل قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [الفجر: 21] ولما تكرر الآية بعد الآية مباشرة، مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: 5-6] ، وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: 3-4] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْمُدِينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْمُدِينِ ﴾ [الانفطار: 17-18]

وأما المفصول: فيأتي على صورتين: إما تكرار في السورة نفسها، ولما تكرر في القرآن كله . مثال التكرار في السورة نفسها :

أ. تكرر قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ في سورة الشعراء 8 مرات.

ب. وتكرر قوله تعالى: ﴿ وَيَلُومُنَّ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ في سورة المرسلات 10 مرات.

ج. في سورة القمر مظهر من مظاهر التكرار، هو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴾ حيث ورد في السورة أربع مرات، وهذه دعوة صالحة للتأمل فيما يسوقه الله من قصص.¹⁰

د. وتكرر قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آءِ آءٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ في سورة الرحمن 31 مرة؛ ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه (وهي الآيات من 16 إلى 34). ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم (والسبعة الثانية من 34 إلى 45) . وحسن ذكر الآلاء عقيبها، لأن في صرفها ودفعها نعمًا توازي النعم المذكورة، أو لأنها حلت بالأعداء وذلك يعد أكبر النعماء. وبعد هذه السبعة، ثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنة (من الآية 47 إلى 61) . ثمانية أخرى بعدها للجنات اللتين دونهما (من الآية 63 إلى 73) ، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله، ووقاه السبعة السابقة .¹¹

ومثال التكرار في القرآن كله:

أ. تكرر قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ 6 مرات: في سورة يونس: 48، والأنبياء: 38 ، والنمل: 71، وسبأ: 29 ، ويس: 48 ، والملك: 25.

ب. وتكرر قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ^ط وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ مرتين: في سورة التوبة: 73، و التحريم: 9.

والثاني : التكرار في المعنى دون اللفظ

إن المقصود من التكرار في المعنى دون اللفظ، هو عادة ما يرد كثيرًا في القصص، كما هو الحال في قصص الأنبياء، كقصة آدم، وقصة نوح، وقصة لوط عليهم السلام، أو العذاب والنعيم في الآخرة، أو إحياء الموتى يوم القيامة، وبعض الظواهر الكونية كخلق السموات والأرض، فمع أن هذه القصص والظواهر المذكورة تتكرر في السور القرآنية، إلا أنها تجيء في كل مرة بصيغة مختلفة، وبمفردات مختلفة، ومن ثم فهي تعرض لأهداف مختلفة. فالألفاظ المستعملة في سياق هذه القصص تختلف من موضع لآخر، أما المعاني والعبر فتتكرر من حين لآخر.

ومن أمثلة هذا النوع من التكرار، قصة آدم عليه السلام المكررة في سورتي البقرة والأعراف : قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ^ط وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢١﴾ فَتَلَقَىٰ آءِ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ^ع إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 35-37] .

وقال عز وجل في سورة الأعراف: ﴿ وَيَتَقَادِمُ فَسُكِّنَ أَنْتَ وَرَوْحُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: 19-20].

بعد قراءة تلك الآيات من سورتي البقرة والأعراف، وجدنا أنها تتحدث عن قصة آدم عليه السلام عندما كان في الجنة و نهي الله له عن التقرب إلى شجرة ما. فبقراءة سريعة وعابرة سيجد القارئ أن تلك الآيات تتحدث عن شيء واحد لا يختلف بعضها بعضا، ولكن إذا قرأناها مرة أخرى وأمعنا النظر فيها سنجد أن بينها علاقة مشتركة حتى تتكامل القصة بتفاصيلها وتتزايد حكمها.

وإضافة إلى التقسيم السابق لأنواع التكرار في القرآن، هناك نوع آخر من التكرار المتعلق بكيفية نزول القرآن، وهو تكرر النزول. هذه الظاهرة تدخل ضمن مسألة علم أسباب النزول يقصد به معرفة السور والآيات التي نزلت مرتين أو أكثر. ومن الممكن أيضا أن نصوغ تعريفا آخر لظاهرة تكرر النزول في القرآن وهو مجيء الوحي بأية سبق نزولها في حادثة جديدة تتضمنها الآية نفسها.¹²

ج/ الالتفات.

أسلوب الالتفات هو أحد المسالك التعبيرية أو الألوان البلاغية التي يشيع استخدامها في لغة القرآن الكريم، بل لعله أكثر هذه الألوان ترددا و أوسعها انتشارا في ذلك البيان الخالد¹³. وأبرز مجالات الالتفات في القرآن الكريم هي:

الالتفات بالضمائر.

الالتفات بالعدد.

الالتفات بالأفعال.

الالتفات المعجمي.

و سنتناول هذه المجالات بشيء من التفصيل على النحو التالي:

1- الالتفات بالضمائر:

يشمل: العدول عن التكلم إلى الخطاب: العدول عن التكلم إلى الغيبة، العدول عن الخطاب إلى التكلم: العدول من الخطاب إلى الغيبة. و من شواهد الانتقال من التكلم إلى الغيبة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا

أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزَرَ ﴿٢﴾ [الكوثر: 1-2] فقد جاء الكلام أولا على طريقة التكلم في:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) ثم انتقل إلى أسلوب الحديث عن الغائب في: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ)، و لم يقل: (فصلّ لنا).

2- الالتفات بالعدد:

غالبا ما لا نجد فرقا في الدلالة والمعنى بين اللفظ في حالتي الإفراد والجمع، ولكن في ألفاظ القرآن الكريم المعجزة هناك تحول كبير في دلالة اللفظ وتباين في معناها في الإفراد وفي الجمع، فقد تأتي اللفظة القرآنية في موضع بصيغة الإفراد، ويعدل عنها في موضع آخر إلى صيغة الجمع ولكل حالة معناها المستقل تبعا للسياق الذي وردت فيه.

من المستويات التي يظهرها الالتفات ما يمثل في المفرد والجمع ومثل ذلك في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ^ع أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَعْتَلُوا﴾ [الحديد: 10]. ورد فعل "أنفق" في الآية الشريفة صلة للفظ "من مفرداً ولكن أشير في نفس الآية إلى الموصول الذي أنت صلته مفردة باسم الإشارة على صيغة المجموع فمن هنا نستطيع القول إن الالتفات العددي وقع من الإفراد في "أنفق" إلى الجمع في "أولئك" للإشارة إلى عظمة شأن المنفقين والمقاتلين قبل الفتح وأشير إليهم باسم الإشارة لما تؤذن به الإشارة من التتويه والتعظيم وللتبنيه إلى أن المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة "أعظم درجة".¹⁴

3- الالتفات بالأفعال:

ذكر صاحب كتاب "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية" أن هذا النوع يتضمن أشكال العدول في صيغ الأفعال: من العدول عن الماضي إلى المضارع، و العدول عن المضارع إلى الماضي، و العدول عن المضارع إلى الأمر. و أورد أمثلة تفصيلية لهذه الحالات.¹⁵

4- الالتفات المعجمي:

يتمثل الالتفات في هذا المجال بين الألفاظ التي تتداخل دوائرها الدلالية بحيث تتلاقى في مساحة قدر مشترك من المعنى، ثم ينفرد كل منهما ببعض الخصوصيات التعبيرية أو الطاقات الإيحائية التي لا يشاركه فيها سواه، فطرفا العدول في هذا المجال هما لفظان يشتركان فيما يطلق عليه علماء اللغة المعاصرون: الدلالة المعجمية أو الدلالة الأساسية و يستقل كل منهما عن الآخر فيما يسمى عندهم الدلالة الهامشية السياقية أو ظلال المعنى و ألوانه، أما قيمة المغايرة بينهما فتتمثل في ملائمة كل منهما بدلالته المنفردة للموقع الذي أوثر فيه من سياق الكلام .¹⁶

مثال الالتفات المعجمي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا

خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 14]، لقد ذكر غير واحد من المفسرين

أن السر في تمييز المستثنى بلفظ (العام) لا بلفظ (السنة) الوارد في تمييز المستثنى منه، هو تحاشي تكرار لفظة (السنة) ، كون التكرار مما يتم اجتنابه حرصا على بلاغة الخطاب.

د./ السياق.

السياق القرآني مؤتلف من ثلاثة عناصر أساسية:

الأول : الأغراض والمقاصد التي بني عليها النص.

الثاني : النظم والأسلوب القرآني المؤتلف من مجموع الكلام والتعبير فيه.

الثالث : الأسباب والأحوال التي نزلت فيها الآية ، والمخاطبون بها فيها.

وتظهر أهمية السياق في أمور:

أولا : أن السياق من تفسير القرآن بالقرآن.

السياق مرتبط حقيقة بالقرآن نفسه من حيث إنه تفسير للقرآن بالقرآن بل هو أعلى درجات تفسير

القرآن بالقرآن إذا كان صريحا ؛ لأنه تفسير الآية بما تضمنته من الدلائل والقرائن وبحسب مناسبتها لما قبلها وبعدها هو السياق ، وذلك يؤكد أهميته، واعتباره أصلا في التفسير. قال صاحب قواعد الترجيح عند

المفسرين : « إن تفسير القرآن بالقرآن ينقسم إلي قسمين ، أحدهما : توقيفي لا اجتهاد فيه ولا نظر ، والآخر : اجتهادي ... فالتوقيفي هو أن يكون في الكلام لبس وخفاء فيأتي بما يزيله ويفسره، إما بعده

مباشرة ، أو في موضع آخر وارد مورد البيان له. فمن أمثلة هذا القسم تفسير الهلوع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ بقوله: بعده: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:

19-21]، فهذا القسم ولا شك أنه أبلغ أنواع التفسير، ولا قول لأحد معه، ومثله لا يتخلف فيه، وهو الذي

يصف من التفسير بالمأثور».¹⁷

ثانياً: أنه أصل معتبر ظاهر في تفسير النبي والسلف الصالح:

من أعظم ما يدل على أهميته أنه وارد في تفسير النبي والسلف الصالح من بعده. بل قد تجلى

ذلك في إنكارهم على من فهم الآية على غير السياق والغرض الذي وردت لأجله.

ثالثاً: أن السياق أصل معتبر في التفسير عند العلماء.

يعد السياق عند العلماء والمفسرين أساساً في فهم الكلام، وأصلاً يحتكم إليه، وبخاصة في كلام الله تعالى الذي بني على أغراض معتبرة، ونظم متحد، وقد تضافرت وتواترت أقوال العلماء في تأكيد ذلك وتقديره.

رابعاً: أن السياق القرآني هو المعتبر في حل الخلاف والإشكال والتشابه اللفظي في الآيات، وهو الدال على المناسبات وأسرار التعبير في الآية.

و منه يعد السياق من أعظم القرائن في الترجيح، وحل المشكلات والمتشابه من الآيات؛ بحيث تكون للسياق الذي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصة؛ فتتردد فيه ألفاظ معينة بحسب تلك السمة، وقد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة، فتطبع ألفاظها بتلك السمة. وهذا واضح وكثير في القرآن الكريم، إذ كثيراً ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد، وإذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو ذاك. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا

عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [النحل: 34] وقوله: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ

بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الجاثية: 33] في حين قال: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ

مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزمر: 48] وقال: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر: 51]؛

فاختار لفظ (العمل) في النحل والجاثية و لفظ (الكسب) في الزمر. قيل وسبب اختيار لفظ (العمل) في النحل والجاثية هو وقوع الآيتين بين ألفاظ العمل، وسبب اختيار لفظ (الكسب) في الزمر هو وقوع الآيتين بين ألفاظ الكسب. فقد جاء في النحل قوله تعالى: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 28] وقوله: ﴿ وَتَوَقَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ [النحل: 111] وجاء في

الجاثية قوله: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا

كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ۗ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَحْمَتِي ۗ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ [الجاثية: 28-30].

في حين وقع لفظ (الكسب) في الزمر بين ألفاظ الكسب، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ

تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: 24] وقوله: ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر: 51] فخصت كل سورة بما

اقتضاه سياقها.¹⁸

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن سورة الزمر هي أكثر سورة تردد فيها لفظ (الكسب) من بين السور الثلاث، فقد تردت فيها هذه اللفظة خمس مرات، في حين لم ترد هذه اللفظة في سورة النحل البتة، وأما في سورة الجاثية فقد وردت ثلاث مرات، فوضعت كل لفظة في الموطن الذي يقتضيها.¹⁹

هـ/ التشبيه.

من المعروف أن القرآن قد يأتي بأنواع الأساليب البلاغية في بيان آياته مثل التشبيه من علم البيان. وقال السيد أحمد الهاشمي في تعريفه إن التشبيه لغة : التمثيل، واصطلاحاً: عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر.²⁰

وأما من وضع أولاً في هذا العلم يعني التشبيه فهو " أبو عبيدة معمر المثنى " (ت 209 هـ) بكتابه "مجاز القرآن". وكان لتشبيهات القرآن أثر في كلام العرب وكانت عمدة البلاغيين أيضاً في ضرب الأمثلة والموازنة بين فنون البيان.

وتتمثل خصائص التشبيه في القرآن الكريم في:²¹

- 1- تشبيهات غير مقيدة ببيئة معينة فلم تنحصر في عصر أو مكان إنما هي تشبيهات عامة تستمد من الطبيعة عناصرها وتأخذ من الكون أجزاءها فهي ليست لفئة خاصة ولا لقوم بأعيانهم ، فمشهد الماء أو الزرع أو الظلمات أو البحر، الرماد أو الجبال كلها لا تختص بزمان أو مكان مع أنه لا استغناء عنها في حياة الإنسان.
- 2- تشبيهات جاءت متسقة مع الغرض الذي سيقى من أجله فقد نجد الشيء الواحد شبه به أكثر من أمر من ذلك لأن فيه صفات متعددة.
- 3- الدقة في اختيار الألفاظ وهذه حقيقة ليست خاصة بالتشبيه ، إنما هي شأن القرآن في أساليبه جميعاً، وفي كل موضوعاته ، فألفاظ القرآن جميعها مختارة ومنتقاة.
- 4- تشبيهات القرآن بعيدة عن عرف الخيال ورعونة العاطفة وسرف القول، فهي عناصر أساسية في الموضوع وأجزاء رئيسية في الجملة.
- 5- القرآن كتاب الله هداية للأحياء ما دامت الحياة فإن التشبيهات جميعها تدور حول الإنسان وهذه الدنيا الزائلة بما فيها من قصور وجبال وأنهار وسفن وأمواج.

و لعل الشيء الذي يستوقف الدارس في تشبيهات القرآن الكريم هو غورها في أعماق النفس الإنسانية وسبرها لمظاهر الكون والطبيعة و استقطابها لملامح الحس و الإدراك البصري و السمعي و

سبك ذلك كله في صياغة موحدة تنظر إلى هداية الإنسان و تهيئة ذهنه بما يحس أمامه وبين يديه وما يدركه واعيا في حياته العامة لذلك جاءت التشبيهات القرآنية ذات قدرة فائقة و لمحات جديدة.²²

¹ الرماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3 (دت)، ص 76.

² حسن منديل حسن العكيلي، نظرات في أسلوب العدول في النص القرآني لدى البلاغيين، مجلة معارف، البويرة، العدد 17، 2014، ص93.

³ المرجع نفسه، ص99.

⁴ ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ، ت: سيد أحمد صقر ، ط2 ، دار التراث ، القاهرة ، د ت ، ص ، 232.

⁵ المرجع نفسه، ص 232.

⁶ المرجع نفسه، ص 232-241.

- ⁷ ينظر: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن ، تحقيق محمد النجار وأحمد نجاتي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط 3، 1983، ج 3، ص 287 ، و ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص235 و ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق د. عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2004، ج 2، ص 93 .
- ⁸ ينظر أبو القاسم علي بن الطاهر المرتضى، الأمالي، صححه وضبطه وعلق عليه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، 1907، مطبعة السعادة، مصر، ط 1، ج 1، ص 84 وينظر : الخطيب الإسكافي، درة التنزيل و غرة التأويل ، تحقيق محمد مصطفى أيدين، معهد البحوث العلمية بمكة، السعودية، 2001، ص 533.
- ⁹ محمد لطفي الأنشوري، أسرار التكرار في القرآن الكريم، Lisania: Journal of Arabic Education and Literature، Vol.1, No.1, 2017، ص 63.
- ¹⁰ عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، 1992، ص 328.
- ¹¹ محمود بن حمزة الكرمانى، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، دار الفضيلة، دت، ص 231.
- ¹² ينظر: محمد لطفي الأنشوري، أسرار التكرار في القرآن الكريم، ص66.
- ¹³ حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1998، (د ط)، ص 55.
- ¹⁴ مرتضى قائمي وآخران، أسلوبية الانزياح في سورة الحديد المباركة، ص 68.
- ¹⁵ ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص 79-85.
- ¹⁶ حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص 159.
- ¹⁷ حسين بن علي بن حسين الحربي، قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، دار القاسم، الرياض، ط 1، 1996، ج 1، ص 320 .
- ¹⁸ ينظر: محمود بن حمزة الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1986، ص 167.
- ¹⁹ فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، عمان، الأردن، ط 4، 2006، ص 238.
- ²⁰ السيد أحمد الهاشيمي ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الفكر، بيروت، 1994، ص 412.
- ²¹ ينظر: عمر بن عطية الله بن عبد الكريم الأنصاري، تشبيهات القرآن الكريم و أثرها في التفسير-من سورة الروم إلى آخر القرآن الكريم، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1431-1432 هـ، ص 33.
- ²² رابع دوب، خصائص التشبيه في القرآن الكريم، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، المجلد 7، العدد 1، 1992، ص 57.